بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في (عام ١٩٦٨م) نشر إريك فون دانكن كتابه المثير للجدل: «عربات الآلهة: ألغاز الماضي التي لم تحل». الذي زعم فيه أن الأديان والتقنية التي عرفت في الحضارات القديمة (كحضارة المصريين القدماء والبابليين والصينيين وغيرهم) ترجع في أصلها إلىٰ كائنات فضائية متطورة. ذلك أن ما خلفته تلك الحضارات من آثار وفنون يشير إلىٰ مستوىٰ تقني ومعرفي أعلىٰ بكثير مما كان متاحًا للإنسان القديم في ذلك الوقت. فإما أن هذه الآثار من نتاج كائنات فضائية متطورة، أو أنها من نتاج أولئك الذين تعلموا من (الفضائيين) القدر اللازم من المعرفة للقيام بهذه الأعمال المعمارية والفنية. ولما كان الفرق في التطور المعرفي والتقني بين أهل الأرض و(الفضائيين) هائلًا؛ فقد نظر الإنسان القديم إلىٰ أولئك الهابطين من السماء كآلهة سامية، ومن هنا نشأت الأديان ليتواصل بها الإنسان مع تلك الكائنات المتطورة.

علىٰ الرغم من أن الكتاب قوبل باستهجان من قبل المجتمع العلمي آنذاك وتم تصنيفه علىٰ أنه من كتب العلوم الزائفة Pseudoscience إلا أنه قد بِيع منه أكثر من سبعة ملايين نسخة، واعتقد كثير من الناس في الغرب صحة ما فيه من فرضيات.

والسؤال: هل ثمة معايير معرفية تحدد لنا ما إذا كانت تلك الفرضيات تدخل ضمن نطاق المعرفة الموثوق بها أو الاعتقاد العقلاني؟ هل ثمة معايير تحدد لنا ما الذي ينبغي أن نتمسك به من المعتقدات وما الذي ينبغي أن نتخلىٰ عنه؟ هل يلام الموقف الاعتقادي لأولئك الذين اعتقدوا صحة مثل تلك الفرضيات؟ وهل لأولئك الذين رفضوا وأنكروا الشرعية المعرفية لهذا الرفض؟

تتطلب الإجابة علىٰ هذه الأسئلة النظر في طبيعة المعرفة[1] والمبادئ التي تحكم عملية الاعتقاد العقلاني، وهذه إحدىٰ

---

(١) **تنقسم المعرفة من حيث النوع إلىٰ ثلاثة أقسام رئيسة**: (١) المعرفة القضوية propositional knowledge أو Knowledge-That وهي معرفة الوقائع التي يعبر عنها بالقضايا. (٢) معرفة المهارات العملية وصنع الأشياء Knowing-How. (٣) معرفة الأشخاص والأماكن Knowledge-Wh. (وهي تختلف عن مجرد معرفة حقائق عن الشخص والتي يمكن التعبير عنها بالقضايا). والنوع الأول هو المقصود في السياق الإبستمولوجي. أنظر:

Richard Feldman, *Epistemology*, (Pearson Education, 2003), p. 8-12.

المهمات التي يحاول الإبستمولوجيون القيام بها. فالإبستمولوجيا هي العلم الذي يعنىٰ بوضع الشروط والقواعد العامة التي بها يحصل الناس علىٰ المعرفة والاعتقادات العقلانية، ولا يفهم من ذلك أن مهمة الإبستمولوجيا البحث عن صحة المعتقدات الجزئية. علىٰ سبيل المثال: ليس من شأن الإبستمولوجيا أن تحدد ما إذا كان ثمة وجود لكائنات فضائية ذكية أم لا، فهذه وظيفة علماء الكونيات والفلك، وإنما تعنىٰ الإبستمولوجيا بالقواعد الكلية والشروط العامة التي تمكننا من الوصول إلىٰ المعرفة. ويمكن للمرء بعد ذلك أن يطبق هذه القواعد الكلية علىٰ الاعتقاد الجزئي لينظر ما إذا كان يرقىٰ للدخول في نطاق المعرفة أو الاعتقاد العقلاني أم لا.

وقد درج المنشغلون بعلم الإبستمولوجيا علىٰ تحليل المعرفة إلىٰ ثلاثة مكونات أساسية:

(١) الاعتقاد.

(٢) الصدق.

(٣) التبرير.

فكون (س) يعرف أن (أ) هو (ب)، يعني: امتلاك (س) لاعتقاد صادق مبرر أن (أ) هو (ب). وعلىٰ هذا الأساس تعرف

المعرفة تقليديًا بأنها: الاعتقاد الصادق المبرر Justified True Belief، ويعبَّر عنها في الإنجليزية اختصارًا بـ (JTB).

أما المكون الأول وهو **الاعتقاد**[1]: فلأن الشخص لا يمكنه أن يملك معرفة عن أمر ما إذا لم يكن لديه اعتقاد عنه، والمقصود بالاعتقاد هنا أعم من أن يحصر في الموقف الاعتقادي الإيجابي (الاعتقاد بصدق القضية)؛ فالموقف الاعتقادي تجاه القضايا يشمل: الاعتقاد بصدقها، أو كذبها، أو التوقف في الحكم عليها؛ فالقضية التي لا تعتقد صدقها ولا كذبها ولا أنت متوقف في الحكم عليها لا يمكنك أن تملك معرفة عنها.

لكن هذا العنصر وحده غير كافٍ فنحن نخطئ أحيانًا في معتقداتنا ونعتقد في أمور كاذبة، ولا يمكن للإنسان أن يعرف أمرًا كاذبًا؛ فلا يمكن أن يكون صحيحًا أن تقول: «هو يعرف هذه القضية لكنها كاذبة»، علىٰ سبيل المثال: لا يمكنك أن

(١) معنىٰ كلمة (اعتقاد) في السياق الإبستمولوجي أعم من المعنىٰ المتبادر إلىٰ ذهن القارئ العربي عادة مما هو مرتبط بالمضمون الديني، فالاعتقاد هنا: أي رأي، أو فكرة، أو قضية يقبلها الشخص أو يقتنع بصحتها لأسباب مقبولة لديه بغض النظر عن كونها مقبولة لدىٰ الآخرين. هذا الاقتناع يجعل الفكرة تسيطر علىٰ عقل الإنسان، وقد تدفعه للسلوك وفقًا لها.

تعرف أن أنور السادات كان رئيسًا لدولة الإمارات، وسبب عدم إمكان معرفتك بذلك هو أن السادات لم يكن رئيسًا لدولة الإمارات. إذن **صدق المعتقد** عنصر ضروري للمعرفة، وهو المكون الثاني[1].

لكن ليس كل اعتقاد صادق يشكل معرفة، فنحن نرىٰ حالات كثيرة يحالف الحظ فيها شخصًا فيعتقد بقضية صادقة لأسباب غير مقبولة، كالتخمين مثلًا، فلا يمكن لهذا الاعتقاد أن يشكل معرفة وإن كان صادقًا، وإنما فقط ذلك الاعتقاد الصادق الذي يتوصل إليه بطريقة صحيحة هو الذي يشكل المعرفة؛ ولذلك كان التبرير ضروريًا للمعرفة وهو المكون الثالث.

لكن السؤال: ما هو التبرير؟

للتبرير تصورات مختلفة؛ فالتبرير عند اللاهوتيين البروتستانت مثلًا -كما يذكر ألفن بلانتنجا- يتم من خلال الإيمان، وهذا يختلف عن مفهوم التبرير لدىٰ الإبستمولوجيين الذين تتعدد نظرياتهم في طبيعة التبرير.

---

(١) وضع الفلاسفة نظريات متعددة في الصدق وأشهرها نظرية التناظر أو التماثل في الصدق Correspondence Theory of Truth. وخلاصتها أن القضية تصدق إذا وجد في الواقع ما يناظرها وتكذب إذا لم يوجد في الواقع ما يناظرها.

وبشكل عام يمكن تعريف (التبرير الإبستمولوجي Epistemic Justification): بأنه المعيار التقييمي المعرفي الذي يحدد ما إذا كان لنا الحق أو الشرعية المعرفية في التمسك باعتقاد ما أو طرحه، كما أنه المعيار الذي يحدد ما إذا كان اعتقاد الشخص يرتفع لمرتبة المعرفة أم يقصر عنها.

وبسبب الدور التقييمي الذي يلعبه التبرير فإنه غالبًا ما تستخدم كلمة (عقلاني) كمرادف للتبرير، فالقول بأن: (الاعتقاد مبرر) يرادف عند كثير من الفلاسفة القول بأن (الاعتقاد عقلاني)، والشخص (العقلاني) هو الذي يتمسك (باعتقاد مبرر).

وللتبرير الإبستمولوجي طابع ديونطولوجي واضح بالإضافة إلىٰ الطابع التقييمي المعرفي. كما بيَّن بلانتنجا في كتابه Warrant: The Current Debate: أن فكرة التبرير غارقة بشكل كبير في مصطلحات علم أخلاق الواجب Deontology مثل: الشرعية، الإلزام، الواجب. فالاعتقاد يكون مبررًا للشخص إذا -وفقط إذا- كان الشخص محقًا في أن يعتقد به، أو إذا كان قد أتم واجبه الفكري المتعلق بالاعتقاد. بالرغم من ذلك ينكر كثير من الإبستمولوجيين المعاصرين الواجب الأخلاقي للتبرير لكون الاعتقاد في تصورهم أمرًا لا إراديًا، لا يمكن التحكم فيه كتحكمنا في الحركات الإرادية.

ولقد ظل التبرير حلقة الوصل الحاسمة بين الاعتقاد والمعرفة منذ أفلاطون حتىٰ قام الفليسوف الأمريكي إدموند جيتيه Edmund Gettier بتحدي التعريف التقليدي للمعرفة في ورقة قدمها (عام ١٩٦٣) بعنوان: «هل الاعتقاد الصادق المبرر معرفة؟» Is Justified True Belief Knowledge?. حيث قدم جيتيه في هذه الورقة عدة حالات تتعارض مع التعريف التقليدي للمعرفة عرفت بحالات جيتيه Gettier cases (أو مشكلة جيتيه The Gettier problem). وكان لورقة جيتيه أثر كبير في مجال الإبستمولوجيا حيث مثلت ميلادًا حديثًا لهذا العلم، فكانت الإبستمولوجيا بعد جيتيه تختلف عما قبلها. ورغم الهزة العنيفة التي تلقاها التعريف التقليدي للمعرفة بعد ورقة جيتيه إلا أن (التبرير) لا يزال يشكل مكونًا أساسيًا للمعرفة عند غالبية المشتغلين بالإبستمولوجيا، وقد ظهرت في الخمسين سنة الأخيرة نظريات كثيرة في التبرير الإبستمولوجي، وتمثل (الدليلية Evidentialism) إحدىٰ أبرز هذه النظريات.

تحمل الدليلية أطروحة أساسية وهي: أن التبرير -وبصورة منفردة- وظيفة الدليل الذي يملكه المرء، ويمكن العثور علىٰ الفكرة الأساسية للنظرية في كتابات العديد من الفلاسفة. علىٰ سبيل المثال يقول جون لوك معبرًا عن روح الدليلية:

«الإيمان ليس إلا موافقة العقل الحازمة، والذي إذا كان منظمًا، كما هو واجبنا، فلا يمكنه منح تلك الموافقة الحازمة لأي شيء إلا بأسباب وجيهة، ولا يمكن أن يكون خلاف ذلك. فهذا الذي يعتقد دون أن يملك أي سبب لاعتقاده، قد يكون في غرام مع أهوائه الخاصة، لكنه لم ينشد الحقيقة أبدًا كما يتوجب عليه، ولم يقدم الطاعة لخالقه الذي منحه هذه القدرة العقلية ليستخدمها ويحفظ بها نفسه عن الوقوع في الخطأ»[١].

أما كلفورد فقد صرح بأهمية الدليل في مقولته الشهيرة: «إنه لمن الخطأ دائمًا، في أي مكان، ولأي أحد، أن يعتقد بأي شيء مع عدم كفاية الأدلة»[٢]، ونرىٰ مثل تلك العبارات التي تؤكد علىٰ محورية الدليل في تشكيل الاعتقاد العقلاني في كتابات هيوم وتوماس ريد وغيرهم، بل يمكن القول إن الفكرة الأساسية للنظرية -أعنىٰ محورية الدليل في تشكيل الاعتقاد

(١) John Locke, An Essay Concerning Human Understanding, edm Am Cm Fraser (New York: Dover, 1959), IV. xvii. 24, pp. 413-14. I Was led to this passage and the passage after this by Earl Conee and Richard Feldman, who cites it in *Evidentialism Essays in Epistemology* (Oxford University Press, 2004), p.1- p.2.

(٢) W. K. Clifford, "The Ethics of Belief", *Contemporary Review* (1877); reprinted in Clifford's Lectures and Essays (London: MacMillan, 1879). The quotation is from p. 183.

العقلاني- هي فكرة بدهية لا يكاد يختلف عليه أحد. ومع ذلك انبرىٰ فلاسفة معاصرون لدحض النظرية وإبطالها مما دعا إريل كوني وريتشارد فلدمن -وهما أبرز من كتب في الدليلية- إلىٰ حمل لواء الزود عنها، وهما لا يخفيان اندهاشهما من أولئك الذين رفضوها.

وللدليلية إصدارات متعددة بحسب الاختلاف في المفاهيم الأساسية المكونة لها، كمفهوم الدليل، ومفهوم امتلاك الدليل، ومفهوم الدعم الذي يمنحه الدليل للاعتقاد، ولا تزال النظرية في طور الاكتمال والتدقيق.

وفي هذا المدخل يقدم دنيال أم متيج Daniel M. Mittag عرضًا شاملًا للبنىٰ الأساسية المكونة للنظرية ولأهم الاعتراضات الواردة عليها. وقد تعرض الكاتب في مدخله للعديد من النظريات الإبستمولوجية المعاصرة، فقمت بالتعريف والبيان لهذه النظريات، وتوضيح ما بدا لي أنه بحاجة إلىٰ توضيح، فكانت هذه الورقة بعد الحاشية (وكلها من وضعي) = تعد مدخلًا للنظريات الإبستمولوجية المعاصرة بشكل عام.

والكاتب هو أستاذ مساعد في الفلسفة حصل علىٰ الدكتوراه عام ٢٠٠٩ من جامعة روتشستر بالولايات المتحدة، وهو عضو بالجمعية الفلسفية الأمريكية (APA). درَّس وقدم أبحاثًا في

الإبستمولوجيا، وفلسفة العقل، وفلسفة اللغة، في عدد من المؤتمرات والمجلات الفلسفية. ومن الأوارق البحثية التي قدمها هذه الورقة عن الدليلية والتي نشرت في المجلة الفلسفية الكندية وغيرها من المجلات الأكاديمية بعنوان: "Evidentialism".

واشتمل هذا المدخل علىٰ مقدمة وخمسة أجزاء:

الجزء الأول: تكلم فيه عن الطابع البدهي للنظرية الدليلية.

والجزء الثاني: تناول فيه المفاهيم الأساسية لبنىٰ النظرية، وقسمها إلىٰ أربعة أقسام، هي:

(أ) التبرير القضوي والتبرير الاعتقادي.

(ب) الدليل.

(ج) امتلاك الدليل.

(د) الدعم.

الجزء الثالث: تناول فيه أبرز الاعتراضات المطروحة علىٰ النظرية وقسمها إلىٰ خمسة أقسام، هي:

(أ) الدليل المنسي.

(ب) ضد الفهم الاحتمالي الاستدلالي للدعم.

(ج) المناشدة الأساسية للديونطولوجي، وتحته ثلاثة عناوين فرعية:

(١) الوجوب يستلزم الإمكان. (٢) مطلب جمع الأدلة. (٣) واجب عدم اتباع الدليل.

(د) الرد البرجماتي.

(هـ) الاعتقاد العقلاني ببطلان النزعة التشكيكية.

الجزء الرابع: وفيه خاتمة البحث.

الجزء الخامس والأخير: وفيه قائمة بالمراجع التي وضعها الكاتب لبحثه والمراجع التي اقترحها لمن أراد أن يتوسع في القراءة.

والله ولي التوفيق

محمد سيد سلامة